﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ [طه: 47]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـــرّبـــط بين دفـــع الـخـوف بالمعيّة، وبيان سبيل التّكاليف الشّرعيّة

لَمَّا ذكرتِ الآيةُ السَّابقة أسبابَ التّأهيلِ والتّمهيد في عرض دعوة موسى وهارون ﷺ على فرعون بهذا الأمر: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾؛ بيَّن هنا ما كُلِّفا بطلبه من فرعون، وهو أصل الرّسالة الّتي أُنيطت بهما، فقال: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾.

ومنَ المناسبة أيضًا: لَمَّا ذكرتِ الآياتُ السَّابقة الأمرَ بالذّهاب إلى فرعون؛ جاءت هذه الآيةُ ببيان أثرِ هذا الذّهابِ، وهو الإتيان إليه الّذي يدلّ على وصولهما إلى مواجهة فرعون.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: (إِسْرَائيلُ) هوَ يَعْقوبُ بنُ إِسْحاقَ بنِ إِبْراهيمَ، وإليه يُنْسَبُ اليَهودُ، فيُقالُ: بَنو إِسْرائيلَ، وإِسرائيلُ كَلِمَةٌ أَعْجَميَّةٌ تَعْني: عَبْدَ اللّه، ويُقالُ أَيْضًا إِسْرائينُ بِالنّونِ، وبَنو إِسْرائيلَ هُم: أَبْناءُ يَعْقوبَ ﷺ[1].

2) ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾: أَصْلُ السَّلام: السَّلامَةُ، واسْتُعْمِلَ عِنْدَ اللِّقاءِ إيذانًا بِتَأْمينِ المَرْءِ مُلاقيَهُ، وأَنَّهُ لا يُضْمِرُ لَهُ سوءًا، ثُمَّ شاعَ فصارَ قَوْلًا عِنْدَ اللِّقاءِ لِلْإِكْرام، والسَّلامُ يَأْتي في الاسْتِعْمالِ مُنَكَّرًا مَرْفوعًا ومَنْصوبًا، ومُعَرَّفًا بِاللّامِ مَرْفوعًا لا غَيْرَ، فأَمَّا تَنْكيرُهُ

(1) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (سرأل)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 9/ 1، ومحمد حسين الذّهبيّ، التّفسير والمفسّرون: 97/ 1.

مَعَ الرَّفْعِ، فهوَ على اعْتِبارِه اسْمًا بِمَعْنَى الأَمانِ، وأَمَّا تَعْرِيفُهُ مَعَ الرَّفْعِ فلِدُخولِ لامِ تَعْرِيفِ الجِنْسِ عليْه، وكَلِمَةُ (على) في الحالَتَيْنِ لِلدّلالَةِ على تَمَكُّنِ التَّلَبُّسِ بِالأَمانِ، وأَمَّا إِنْ نَصَبوا مَعَ التَّنْكِيرِ فعلى اعْتِبارِه كَمَصْدَرِ (سَلَّمَ)، فهوَ مَفْعولٌ مُطْلَقٌ أَتَى بَدَلًا مِنْ فِعْلِه، تَقْديرُهُ: سَلَّمتُ سَلامًا.

3) ﴿ٱتَّبَعَ﴾: (تبع) أَصْلٌ يَدُلُّ على التُّلوِّ والقَفْوِ، يُقالُ تَبِعتُ فُلانًا إذا تَلوتَهُ واتَّبَعْتَهُ، وأَتْبَعْتُهُ إذا لَحِقْتَهُ[1] كأَنَّما لَحِق أو التصق به وتَطَلَّبه مُتَّبِعًا له[2]، والاتِّباعُ: اقْتِفاءُ أَثَرِ الماشي، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ في العَمَلِ بِمِثْلِ عَمَلِ الغَيْرِ[3]، يُقال: تَبِعتُ الرَّجُلَ إذا مشيتُ مَعَه، واتَّبعته إذا مشيت خَلفَه لتلحقه[4]، وأتبع فلانٌ فلانًا إذا تبعه يُريد به شرًّا، كما أتبع فِرْعَوْن موسَى، وأَمَّا التَّتَبُّع فأَنْ يتتبَّع في مُهْلةٍ شَيئًا بعد شَيْءٍ[5]، والمُرادُ بالاتِّباعِ في الآيةِ: اقتِفاءُ السَّيْرِ على سَيْرٍ آخَرَ، وهو هنا مُستَعارٌ لِلعَمَلِ بِمِثْلِ عَمَلِ الآخَرِ.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

مضمون الرّسالة تخليصُ بني إسرائيلَ من طغيان فرعون وإذلاله المهين

يُبيِّن اللّهُ تعالى في هذه الآية لموسى وهارون طريقةَ دعوةِ فرعونَ، فقال: فاذهَبا إلى فِرعَونَ فقولا له: إنَّا رَسولانِ إليكَ مِن رَبِّك الّذي خلَقَك وربَّاك، فأَطْلِقْ بني إسرائيلَ ليذهَبوا معنا، ولا تُعَذِّبْهم باستعبادِهم وتَذبيحِهم، وتكليفِهم الأعمالَ الشاقَّةَ، وقد أتيناكَ بمعجزةٍ من ربِّك تدلُّ على صِدقِنا، والسَّلامةُ مِن سَخَطِ اللّه وعذابِه في الدُّنيا والآخرةِ لِمَنِ اتَّبَعَ هدى اللّه الَّذي شرَعَه لعبادِه[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تبع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تبع).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 423.
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (تبع).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تبع).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 77، 78، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 292، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 4/ 16.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَأْتِيَاهُ﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَأْتِيَاهُ﴾ لتفريع الأمر بالإتيان، وترتيبِه على قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾، أي: فأنتم في معيّتي في أمان ﴿فَأْتِيَاهُ﴾، ويجوز أن تكون عاطفةً، فعطفت قولَه تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ﴾، على قوله: ﴿لَا تَخَافَآ﴾ باعتبار تعليله بما بعدَه، والمعنى: (فأتياه من غير تراخٍ، وجابهاه بما أمرَكما اللّهُ به)[1].

تنوّع دلالة حرف المعنى، ثراءٌ للبيان، وفُسحةٌ في المعاني

سِرّ التّعبير بالإتيان في قوله: ﴿فَأْتِيَاهُ﴾:

عبَّر تعالى بـ (الإتيان) ليُشْعِرَ موسى وهارونَ بأنّ قدومَهما على فرعون ومثولَهما بين يديه لدعوته، لن يكون بهذه الصّعوبة الّتي يتصوَّرانِها، ويَحسِبون لها حسابًا، بل إنّ الأمر سهلٌ، وفي ضمانة اللّه تعالى؛ ولأنّ المراد بـ (الإتيان) وصولُهم وحلولُهم في مجلسه؛ لإبلاغه بما أمرَهما اللّهُ به، في قوّةٍ وعِزّةٍ، وفيه إشارةٌ إلى بداية زوال ملكه ونهاية حُكمه، وفي التّعبير به أيضًا إشارةٌ إلى قوّة موسى وهارون ﷺ، وأنّهما مدّرعان بقوّة اللّه تعالى الّتي تُرْهب كلّ مخلوقٍ، ولو كان فرعونَ الطّاغية[2].

بيانُ أنّ إتيان فرعون لاخوفَ منه؛ لأنّهما في معيّة الله

سِرّ التّعبير في الأمر بلفظَي (الذّهاب) و(الإتيان):

في قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾، وقوله: ﴿فَأْتِيَاهُ﴾، فالأوّل أمرٌ بالذّهاب؛ بخلاف الثّاني فهو أمرٌ بالإتيان، وهو أثرٌ الذّهاب، وعلى ذلك فلا تكرارَ بينَ الذّهاب والإتيان.

الفرق بينَ الذّهاب وأثرِه، في مضمون الخطاب

دلالة الأمر في قوله: ﴿فَأْتِيَاهُ﴾:

يدلّ توجيهُ الأمرِ بالإتيان في قوله: ﴿فَأْتِيَاهُ﴾ على أنّهما كانا قدِ اقتربا من مكان فرعون؛ لأنّهما في مدينته، فلذا أُمِرا بإتيانه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 198.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4732.

ودعوته[1]، وفيه إشارةٌ إلى إعادة التّكليف للمرّة الرّابعة، حيثُ ذُكِرت المَرّة الأولى في قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝٢٣ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤﴾ [طه: 23 - 24]، وفي الثّانية: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾، وفي الثّالثة: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، وفي الرّابعة أمرَهما أن يقولا: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[2].

تنوّع آيات التّكليف؛ لقربهما من مكان فرعون، ووصولِهما إليه

سِرّ التّعبير بالإضمار ﴿فَأْتِيَاهُ﴾ دون الإظهار:

أوثِر التّعبيرُ بالإضمار دونَ الإظهار في قوله: ﴿فَأْتِيَاهُ﴾، فلم يقل: (فأتيا فرعون)؛ لتقدّم ذِكْره في قوله: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾، فالسّياق هو هو، والحوار هو هو، فلم ينتقل إلى حوارٍ جديد، ثمّ إنّ إضمار اسمِه يترتّب عليه منَ التّحقير ما ترتّب على إظهار اسمه في قوله: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾؛ لأنّه كان يدّعي الرّبوبية والأُلوهيّة[3]، وفيه إشارةٌ إلى نهاية مُلك فرعونَ وحُكمه؛ لأنّ الضّمير يُشير إلى خفاء الشّيء بعد ظهوره، وهذا ما وقع لفرعون من زوال ملكه وإغراقه هو وجنوده.

التّحقير والتّقليل من شأن فرعون، بإضمار اسمه من بيان الدّلالة

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَقُولَآ﴾:

رتّبتِ الفاءُ الأمرَ بالقول ﴿فَقُولَآ﴾، على الأمر بالإتيان ﴿فَأْتِيَاهُ﴾؛ دالّةً بذلك على لُزوم الإسراع بالقول والتّعجّل به، بعدَ إتيانهما فرعونَ؛ لإعلانه بأنّهما رسولا ربّك، وليس ذلك منِ اجتهادهما.

ترتيبُ الأمرِ منَ الله بالقول، على الأمر بإتيان فرعون

سِرّ التّعبير بالقول دون الدّعاء في قوله: ﴿فَقُولَآ﴾:

أوثِرَ التّعبيرُ بالقول دون الدّعاء في قوله: ﴿فَقُولَآ﴾؛ لأنّه أعمّ منَ الدّعاء، ولأنّ لفظ الدّعاء يشي بمعنى الحملِ على إتيان التّكاليف، وهو ما قد يَصْعُب تقبُّله من فرعون، فأُمِرا أوّلًا باللّين في القول؛ ليبدوَ الأمرُ معه كأنّه رجاءٌ واستعطاف، ثمّ بإخباره بأنّهما

القولُ أعمّ منَ الدّعوة، وهو توطئةٌ لها؛ لتلينَ القلوبُ وتستجيب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 228.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 11/ 332.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 46.

مُرسلان منَ الله تعالى ليخبراه بذلك، ومعهما الحُجّة الّتي تدلُّ على صدقهما؛ تحقيقًا للحَقّ من أوّل الأمر؛ ليعرفَ فرعونُ الطّاغيةُ قدرَهما وشأنَهما، فيبنيَ جوابَه على ذلك قبولًا أو رفضًا؛ فإنْ قَبِل قولَهما ولانَ لهما، انتقلا بعدَ ذلك وتَدَرَّجا إلى دعوته.

سِرّ تعقيب الإتيان بأمر الرّسالة:

عقّب القرآن الكريم بأمر الرّسالة، بعد قوله: ﴿فَأْتِيَاهُ﴾؛ لأنّه لولا الإتيان لما حصل لهما دعوى الرّسالة المذكورة في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ بإظهار المعجزة[1].

غـايـة إتـيـانِ فرعونَ، إبلاغُه بمُراد الله منه

دلالة التّأكيد في قوله: ﴿إِنَّا﴾:

دلّ التّعبير بـ(إنّ) في قوله: ﴿إِنَّا﴾ على التّأكيد؛ لأنّ المُتوقّع من فرعون التّشكّكُ والإنكار[2]، وعدمُ تصديقِهما، فكان التّعبيرُ بـ (إنّ) ملائمًا لمخاطبته ومحاورته.

شَـكُّ فـرعـونَ وعـــدمُ تـصـديـقـهـمـا، رغـمَ الآيـاتِ الباهرة

سِرّ التّعبير بـ ﴿إِنَّا﴾ دون (إِنَّنا):

عبَّر القرآن الكريم بـ ﴿إِنَّا﴾ بالإدغام دون (إنّنا) بالإظهار؛ لما يوحيه هذا الإدغامُ من معنى المؤازرة والجمع والتّكاتف بينَ الرّسولين الكريمين عليهما السلام؛ تحقيقًا لطلب موسى عليه السلام، الّذي حكاه القرآنُ على لسانه: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ [طه: 29 - 32]، ثمّ استجابتُه سبحانَه لطلب موسى عليه السلام في قوله سبحانه: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦﴾.

الإدغـام يوحي بمعنى المُـؤازرة والمكاتفة

سِرّ التّعبير بلفظ ﴿رَسُولَا﴾:

عبّر القرآنُ الكريم بالرّسالة بقوله: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا﴾؛ لكونهما مُحَمَّلَين برسالةٍ منَ الله إليه، ولاجتثاث غضبه، ما لو ظنّ أنّهما مُغْرِضان لمصلحةٍ تخصّهما، أو للغَضّ من مقامه الّذي فرضَه على

الـرّسـول مكلّفٌ بالبلاغ، ولا دورَ لـه إلّا الـبـيـانُ والإقناع

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 357.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 292.

النَّاس، بادّعاء الرّبوبيّة، كما يقول من حُمِّل برسالةٍ قاسيةٍ إلى شخصٍ غضوب، مُبَرئًا نفسه: أنا مُجَرّد رسولٍ، ولبيان أنّ الأمر ليس من اجتهادهما، بل هو تكليفٌ ربَّانيٌّ.

دلالة التّثنية ﴿رَسُولَا﴾ دون الإفراد:

التّثنية هنا باعتبار الرّسولين، والإفراد في (الشّعراء) باعتبار الرّسالة

عبَّر القرآنُ الكريم بالتّثنية في قوله: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، باعتبار موسى وهارون ﷺ، ولما في ذلك من معنى المُؤازَرة بينهما[1]، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشّعراء: 16] بالإفراد، فباعتبار الرّسالة، فهي واحدةٌ، فإنّهما مُرسَلان معًا بنفس الرّسالة إلى فرعون.

وممَّا يُذْكَر في ذلك أيضًا: أنّ لفظ الرّسول أصلُه مصدرٌ وُصِفَ به، والمصدر إذا وُصِفَ به ذُكِّر وأُفْرِد، وعلى هذا: فالإفرادُ في سورة الشّعراء نظرًا إلى أنَّ أصل الرّسول مصدرٌ، والتّثنيةُ في موضع طه؛ اعتدادًا بالوصفيّة العارضة، وإعراضًا عنِ الأصل[2].

دلالة التّكليف في هذه الآية وسابقتها:

تلوين الخطاب بين اللّين والشّدّة

النَّاظر في قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ الآية، يجد أنّ لغة التّكليف فيها شدّةٌ، خلافًا لما سبق في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾؛ وذلك لما تحمله ألفاظُ التّكليف في المرّة الرَّابعة الواردة في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾؛ حيثُ دلّت على طلب انقياده إليهما، والتزام طاعتهما، وهذا أمرٌ يَعْظُم على فرعون الّذي يدّعي الأُلوهيّة والرّبوبيّة؛ فقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فيه إدخالُ النّقص على ملكه؛ لأنّه كان محتاجًا لبني إسرائيلَ فيما يريده من أعمال البناء والحفر، ونحوِ ذلك، وقوله: ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ فيه نهيٌ لمن يدّعي الأُلوهيّة والرّبوبيّة، وفي هذا تهوينٌ من شأنه، وتقليلٌ من سلطانه[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 292.
(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 4/ 415.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 292.

سِرّ التّعبير بالرّبوبيّة، والإضافة فيها:

تحقير فرعونَ والتّعريضُ به؛ لكفره بالله، وادّعائه الرّبوبيَّة

في التّعرّض لعنوان الرّبوبيّة مع الإضافة إلى ضميره منَ اللّطف ما لا يخفى، على معنى: إنّه ﴿رَبِّكَ﴾ الّذي ربَّاكَ فأحسنَ تربيتَكَ، بعد أن أوجدَك منَ العدم، وإن رأى اللّعين أنّ في ذلك تحقيرًا له، حيثُ إنّه يدّعي الرّبوبية لنفسه، ولا يعدُّ ذلك من الإغلاظ في القول[1]، وقيل: بل يشير التّعبير بـ ﴿رَبِّكَ﴾ إلى تحقيره، والتّعريضِ به فعلًا، بأنّه من جملة عبيد مُرْسِلِهما؛ تكذيبًا له في ادّعائه الرّبوبيّة[2]، الّتي حاول أن يثبّتها في قلوب أتباعه.

دلالة الإفراد ﴿رَبِّكَ﴾ دون الجمع (رَبِّكُم):

فرعون هو المعنيُّ بالخطاب؛ لأنه ليس ربًّا، بل مربوبًا

دلّ الإفراد في كاف الخطاب ﴿رَبِّكَ﴾ على أنّ المَعنيَّ هو فرعون، وليس ملأَه وحاشيتَه؛ لأنّهم مأمورون بأمره، وهو قد زعم لنفسه الرّبوبيّة، فالمطلوب توجيه الخطاب له وحدَه؛ لأنه لو اقتنع وتخلّى عن دعوى الرّبوبية، فسيُطيعونَه بلا ريب.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَأَرْسِلْ﴾:

مطلب إرسال بني إسرائيل مع الرّسولَين، مترتّبٌ على ما سلف ذِكْره

الفاء في قوله: ﴿فَأَرْسِلْ﴾ لترتيب ما بعدَها على ما قبلَها، فإنّ كونهما ﷺ رسولَي ربّه تعالى، ممَّا يوجب إرسالَهم معهما، فدخلت الفاء على طلب إطلاقِ بني إسرائيل؛ لأنّه جعلَ طلبَ إطلاقِهم كالمستقرّ المعلوم عند فرعون؛ إمَّا لأنّه سبقت إشاعةُ عزمِهما على الحضور عند فرعون لذلك المطلب؛ وإمَّا لأنّه جعلَه لأهميّته كالمُقرّر، وتفريع ذلك على كونهما مُرسَلَين منَ الله ظاهر؛ لأنّ المُرسَلَ منَ الله تجبُ طاعتُه[3].

سِرّ التّعبير بالإرسال دون البعث:

الإرسال دليلٌ على وجود مُرسِل، وهو الله ﷻ

أوثِر التّعبيرُ بالإرسال دونَ البعث في قوله: ﴿فَأَرْسِلْ﴾؛ لمناسبة

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 511.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 292.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 511، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 229.

الإرسال لهذا المشهد في قصَّة موسى وهارون مع فرعون؛ لأنّهما ما طلبا هذا إلَّا عن رسالةٍ كلّفهما اللّهُ تعالى بها، وليس من اجتهادهما؛ لأنّ الفعل (أرسل) يقتضي وجودَ مُرسِلٍ، وهو الله تعالى؛ ولأنّ الإرسال يحمل معنى الإطلاق؛ فتقول: (أرسله) أي: أطلق سراحَه، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ بني إسرائيل كانوا مقيّدين تحتَ حُكم فرعون، والغَرَض منَ الإرسال إطلاقُ سراحهم من ذُلّ هذا القيد.

دلالةُ أمر فرعون في قوله: ﴿فَأَرۡسِلۡ﴾:

المراد بطلب إرسالِ بني إسرائيلَ معهما "إطلاقُهم منَ الأسر، وإخراجهم من تحت يده الباطشة، لا تكليفُهم أن يذهبوا معهما إلى الشَّام، كما يُنبىء عنه قولُه سبحانه – بعد ذلك –: ﴿وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ﴾"[1]، وفيه دلالةٌ على التّهوين من أمر فرعون، بتوجيه أمرٍ إليه، وهو الذي يَدّعي الأُلوهيّة والرّبوبيّة؛ فكيفَ يكون إلهًا ويأمره غيرُه؟!.

طلبُ الإرسال، يعني إطلاقَهم منَ التّقييد والتّعذيب الشّديد

دلالة المعيّة في قوله: ﴿مَعَنَا﴾:

التّعبير بالمعيّة في قوله: ﴿مَعَنَا﴾، كنايةٌ عنِ الإسراع في إطلاقهم منَ الأسر والتّعذيب، أي: عجِّل بإصدار الأوامر الّتي تفضي إلى إطلاقهم، وكفِّ يَدِ التّعذيب عنهم، وفيه إشارةٌ إلى ولاية موسى وهارون لأمر بني إسرائيل، في الدّفاع عنهم، والحفاظِ على مصالحهم.

التّعجيل والإسراع في إرسال بني إسرائيل، مطلبُ موسى وقومِه

سِرّ تقديم ﴿مَعَنَا﴾ على ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿مَعَنَا﴾ على قوله: ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ للاهتمام بهم، وأن يعرفوا أنّهم إنّما أُطلِق سراحُهم من جبروت فرعون برسالة اللّه الّتي نحملها إليك؛ لعلّ ذلك أن يكون دافعًا لهم للإيمان برسالتهما، والصّدقِ معهما، وهذا الغرضُ لا بدّ أن يكون مستبطنًا في نيّة الرّسولَين وضميرهما، فهو ممَّا لا يَحْسُن البوحُ به أمامَ فرعون، الّذي كان يرى نفسَه ربًّا لهم ولغيرهم.

رسالةُ اللّه إطلاقٌ منَ القيود، وتَحرّرٌ منَ الظّلم والجمود

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 511.

سِرّ إيثار التّعبير ببني إسرائيل عنِ اليهود:

اعتبارُ النّسب إلى إسرائيل، وهو نبيّ الله يعقوب عليه السلام

التّعبير عنهم بـ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ دون اليهود، إطلاقٌ باعتبار النّسَب إلى نبيّ اللّه يعقوب عليه السلام، فهو ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، وهو بهذا الاعتبار أوسع منَ التّعبير باليهود، وفيه دلالةٌ على تبكيت فرعون؛ لأنّ هؤلاء ينتسبون إلى بيت النّبوة ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ نبيّ اللّه يعقوب؛ فما كان له أن يستذلَّهم، ولا أن يعذِّبَهم.

سِرُّ الاقتصار على طلب إطلاق بني إسرائيلَ من فرعون:

بيان خصوصيّة دعوة موسى وهارون لبني إسرائيل

يعود الاكتفاء بطلب إرسال بني إسرائيل من فرعون دون قومِه، إلى أسبابٍ مِن أهمّها؛ **أوّلًا:** أنّ موسى عليه السلام رسولٌ مِن بني إسرائيل، أُرسِلَ لإنقاذهم وجَعْلِهم أمّةً مستقلّة، خرجت من تحت حُكم فرعون؛ فهم قومه، ودعوتُه إليهم لا إلى غيرهم؛ فموسى لم يُرسَل لخطاب القِبط بالشّريعة على وجه التّأصيل، مع أنّه دعى فرعونَ وقومَه إلى التّوحيد، من باب الأمر بالمعروف وتغيير المُنْكَر، **وثانيًا:** تخليص بني إسرائيلَ من أسر فرعون، مقصدٌ مهمٌّ، ومفتاحٌ لاستمالة بني إسرائيل لقبول دعوته.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ﴾:

كان بنو إسرائيل يعيشون المعاناةَ والعذابَ

الواو في قوله: ﴿وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ﴾ قد تكون عاطفةً؛ لأنّها عطفت النّهي عن عذابهم، على الأمر بالإرسال في قوله: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ وذلك لاشتراكهم في تكليفات اللّه لموسى وهارون عليهما السلام.

سِرّ النّهي عنِ التّعذيب بالمضارعة:

كان المطلوبُ إخراجَ بني إسرائيلَ منَ الأعمال الشّاقة المسلّطة عليهم

عبّر القرآنُ الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ﴾؛ لبيان الحالة التّي كان عليها بنو إسرائيل من تعذيب فرعون لهم، وهذا ما قصّه القرآنُ في بعض آياته، فقد ذكر في سورة البقرة تعذيبَهم بقوله: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ

﴿٤٩﴾ [البقرة: 49]، وهذا المعنى تكرّر ذِكْره في سورة الأعراف، وفي سورة إبراهيم، وفي سورة الدّخان، في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾ [الدّخان: 30]، وصورة ذلك أنّ فرعون ومَلَأَهُ كانوا "يُعَذِّبونَهُم بِتَكْليفِ الأَعْمالِ الشَّاقَّةِ؛ مِنَ الحَفْرِ والبِناءِ، ونَقْلِ الحِجارَةِ والسُّخْرَةِ، في كُلِّ شَيْءٍ، مَعَ قَتْلِ الوِلْدانِ، واسْتِخْدامِ النِّساءِ"[1]، وهذه كلّها أعمالٌ شاقّةٌ مُؤلِمَة حسّيًّا ونفسيًّا، ولذا عبّر عنها بالتّعذيب، فالعذاب "هو الإيجاع الشّديد"[2]، وسِرّ التّعبير به مضارعًا؛ كونُ هذا التّعذيب كان قائمًا وقتَ هذا الخطاب، فهو تعبيرٌ عن واقع الحال، واستحضارٌ للحالة الّتي كانوا عليها.

دلالة الأمر والنّهي في الآية:

النّاظر في هذه الآية يجد أنّها اشتملت على أمرٍ في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، ونهيٍ في قوله: ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾؛ وذلك لهدم سلطانه وجبروته؛ لأنه يظنُّ أنّه هو الّذي يملك الأمر والنّهي، فلم يتصوّر يومًا ما وجودَ أحدٍ أيًّا كان من شعبه أو ممّن تحت إمرته، أن يأمره وينهاه، وينقص ملكَه بإخراج بني إسرائيل، وفي هذا دليلٌ على أنّ زعمه وادّعاءَه الأُلوهيّة كذبٌ وخروجٌ على منطق الفطرة.

السّياق يأمر فرعون وينهاه؛ لكسرِ ادّعائه الألوهيّة

دلالة التّعبير بالأداة ﴿قَدْ﴾ في السّياق:

دلّ دخول ﴿قَدْ﴾ على الفعل الماضي ﴿جِئْنَاكَ﴾ في قوله: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ﴾، على التّحقيق والتّأكيد، ومجيئه هنا في الجملة لتحقيق صدقهما، في كونهما رسولَين منَ اللّه تعالى إليه، وتأكيده[3].

تأكيد صدق موسى وهارون عليهما السلام في بلاغهما عنِ الله

سِرّ البَدء بطلب إرسال بني إسرائيل:

بدأ موسى وهارون عليهما السلام دعوتَهما إلى فرعون الطّاغية بطلب

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 338.
(2) الرّاغب، المفردات: (عذب).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 511.

إرسال بني إسرائيلَ معهم، في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾، وذلك قبلَ دعوته وآلِه إلى الإيمان؛ للتّدرّج في الدّعوة، ولأنّ البَدء بطلب إرسالهم أهمُّ من دعوة القِبط[1].

مراعاةُ الأولويّات في الدّعوة والحوار، ضروريّةٌ في السّعة والاضطرار

سِرّ فصل جملة ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ﴾ عمَّا قبلها:

فُصِلت جملة ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ عمَّا قبلها؛ لأنّها بيانٌ لجملة ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، فكانتِ الأولى إجمالًا والثّانية بيانًا، وفيها معنى التّعليل لتحقيق كونهما مُرسلَين منَ الله، بما يظهرُه اللّهُ على يد أحدهما من دلائل الصّدق، وكِلا الغرضين يوجِب فصلَ الجملة عنِ التي قبلها[2]، أو أنّ الفصل للاستئناف البيانيّ[3]؛ وذلك لأنّ هذه الجملة مُقرِّرةٌ لما تضمّنه الكلامُ السّابقُ مِن دعوى الرّسالة المذكورة في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ﴾، وقد جرى من ذلك الكلامُ مجرى البيان والتّقرير له؛ لأنّ دعوى الرّسالة لا تثبت إلّا ببيّنتها، الّتي هي المجيء بالآية المعجزة[4].

من البلاغة أن تكون جملة الفصل بيانًا لما قبلَها

دلالة التّعبير بجملة ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ﴾:

عبّر القرآنُ الكريم بالمَجيء في قوله: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ﴾، مع أنّ السّياق قبلَ ذلك كان بالإتيان؛ وذلك لتصوير الحالة الّتي كان عليها موسى وهارون؛ حيثُ انتقل موقفُهما مِن خائفَين إلى مُرهبَين، ومعنى قوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ﴾، أي: جئناك مُجابهين مُسلّحين بآيةٍ ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾[5]؛ فالتّعبير بالمَجيء يدلّ على الشّدة والقوّة، وهي هنا نابعةٌ من قوّة الحُجّة والبرهان، الّذي أُيِّد به نبيُّ اللّه موسى عليه السلام؛ من معجزاتٍ أبكمت فرعونَ، كمعجزة اليد، ثمّ بعد ذلك معجزة العصا وغيرها.

قوّةُ الحُجّة والبرهان، سبيلُ الإقناع والإفحام

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 198.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 229.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 511.
(4) ابن التّمجيد، حاشية على هامش حاشية القونويّ: 12/ 357.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4732.

دلالة الماضي ﴿جِئْنَاكَ﴾، وسِرّ الجمع:

عـــبَّر بـالمـاضي لتحقُّق المَجيء، بدليل ما صحبه من معجزات

دلّ التّعبير بالماضي في قوله: ﴿جِئْنَاكَ﴾ على تحقّق المَجيء، مع وجود معوّقاتٍ كثيرةٍ؛ من بطش فرعون وجبروته، لكن كلّ ذلك لا وزنَ له بعدَ أمر الله ﷻ بإتيانه وإعلامه بمُراد الله منه، وفيه إشارةٌ إلى أنّهما أفسدا عليه جبروته واستعباده لبني إسرائيل، بل ولشعبه أيضًا، وإنّما جُمِع الضّمير في ﴿جِئْنَاكَ﴾، مع كون ظهور الآية إنّما كان من موسى ﷺ وحدَه؛ لكونهما شريكَين في الرّسالة[1].

دلالة كاف الخطاب في جملة: ﴿جِئْنَاكَ﴾:

صيغة الخطاب بـالإفـراد، تُنبئ أنّ هيبة فرعون تـضاءَلت أمـامَ هيبة النّبوّة

في توجيه الكلام له بكاف الخطاب المُجرّد عن كلّ لقب، تحقيرٌ له لكفره بالله، ونزعٌ لهيبته ومُلكه، حيثُ خاطباه بصيغة الفرد العاديّ على خلاف مخاطبة الملوك والفراعين.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِآيَةٍ﴾:

وجـــود الآيـــة المـصـاحـبـة للبلاغ، احتياطٌ لإقـنـاع مَـن لم يقتنع

تدلّ الباء في قوله: ﴿بِآيَةٍ﴾ على الإلصاق والمصاحبة، أي: ﴿جِئْنَاكَ﴾ مصحوبين أو متلبّسين ﴿بِآيَةٍ﴾؛ إظهارًا لكونهما مُستَعِدَّين لإعلان الآية والمعجزة، إذا أراد فرعون ذلك، وإذا آمن من غير طلب آيةٍ يكون إيمانه أكمل، وأنّى له ذلك؟![2].

دلالة التّعبير بلفظ (الآية) دون (معجزة):

الآيـــة أعـــمّ وأشـمـل مـنَ المعجزة، ولذلك آثـــرَ الـقـرآنُ استعمالَها

أوثِر التّعبيرُ بالآية في قوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ﴾ دونَ المعجزة؛ لأنّ الآية بمعنى العلامة الدّالّة على صدق الأنبياء ﷺ، فهي أعمّ وأشمل؛ ولأنّها تعبيرٌ أثيرٌ في القرآن بجانب تعابيرَ أُخرى كـ (البرهان، والسّلطان، والبيّنة)، وليس مِن بينها لفظ (معجزة)، الّذي لم يَرِد في القرآن ولا في السّنة، بمعنى الدّليل على صدق الأنبياء، فهو مصطلحٌ نشأ مع ظهور المتكلّمين، مأخوذًا من حالة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 338.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 229.

الضّعف والعجز الّتي تظهر على المُخاطَبين حالَ تحدّيهم مِن قِبَل الأنبياء بما أيّدهمُ اللّهُ به مِن أدلّة الصّدق.

سِرّ التّعبير بالإفراد في لفظ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾:

تَثْبيتُ الدَّعْوَى بِبُرْهانِها، منهجٌ للإرسال السّماويّ السَّامي

أيّد اللّهُ تعالى موسى عليه السلام بكثيرٍ منَ الآيات، من أبرزها في محاجَّة فرعونَ آيتا (اليد والعصا)، لكنّه هنا وحَّدها باعتبار الإشارة إلى جنس الآيات، كأنّ المعنى: (قد جئناك ببيانٍ من عند اللّه)، وممَّا يُذْكَر في علّة إفرادها وعدم تثنيتها، مع وجود آيتين معه؛ أنَّ المُرادَ في هذا المَوْضِع تَثْبيتُ الدَّعْوَى بِبُرْهانِها، وبيانُ تعدّدِ الحُجّة، فكأنَّهُ قال: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ﴾ بمُعْجِزَةٍ وبُرْهانٍ وحُجَّةٍ على ما ادَّعَيْناهُ مِنَ الرِّسالَة، وكَذلِكَ قال: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 105]، وقال: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشّعراء: 154]، وقال: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشّعراء: 30][1]، وفي هذا إشارةٌ إلى تعاضد الآيات بعضها ببعضٍ كأنّها حجّةٌ واحدة.

دلالة التّنكير في قوله: ﴿بِـَٔايَةٍ﴾:

نَكَّر لفظَ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ ولم يأت به معرفةً؛ للدّلالة على كونها آيةً بيّنةً ظاهرةً عظيمةً، لا يملك فرعون ولا غيرُه معارضتها، وقد جاءت الآية موسومةً بالتّفخيم والتّعظيم؛ لمجيئها منَ العظيم.

سِرّ اختلاف التّعبير عنِ الآية إفرادًا وجمعًا:

بيانُ الله حُجّةٌ ظاهرةٌ، وآياتٌ باهرة

تعدّد الحديث عنِ الآية في مشهد موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون؛ حيثُ جاء مرّةً بالجمع في قوله: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾، ومرّةً بالإفراد في قوله: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ﴾؛ وعلّة ذلك أنّ معنى الآية الإشارةُ إلى جنس الآيات، كأنّه قال: قد جئناك ببيانٍ من عند اللّه، وهذا البيان يجوز أن يكون حجّةً واحدة، أو حُججًا كثيرة[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 338، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 45.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 11/ 333.

دلالة التّعبير بـ ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾:

عبّر بالحرف ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾؛ للدّلالة على ابتداء الغاية، والمعنى: ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ كائنة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾، وفي هذا دليلٌ على أنّ الأمر ليس اجتهادًا، بل دورُهما دورُ البلاغ عن الله.

كـلّ وحـيٍ من الله تعالى، فهو حقٌّ لا ريبَ فيه، تبلّغه الرّسل

سِرّ تكرار لفظ الرّب:

في تكرير لفظِ الرّب تأكيدٌ لمقرّرات الآية الكريمة، وزيادةُ توبيخٍ لفرعون، وإعلامُه بأنّه مربوبٌ مقهورٌ، وليس ربًّا ولا إلهًا.

كـلّ مـدّعٍ لـلـرّبـوبـيّـة، انـتـهـى بـالـبـوار والـخـسـران والهلاك

بلاغة الإظهار في موضع الإضمار:

أظهر التّعبير القرآنيّ اسمَ الرّب في موضع الإضمار، مع الإضافة إلى ضمير المخاطَب - فرعون - ؛ لتأكيد ما ذُكِر منَ التّقرير والتّعليل[1]، أي: تقريرٍ لما تضمّنه الكلامُ السّابق من دعوى الرّسالة، وتعليلٍ لوجوب الإرسال، كما أنّ فيه تأكيدًا على تبكيت فرعون في ادّعاء الرّبوبيّة، ونسبتَه إلى كفر الإحسان[2]؛ فضلًا عمّا هو فيه من كفر الاعتقاد.

ذِكـر الـرّبـوبـيّـة تعليلٌ للإرسال، وتبكيتٌ لأرباب الضّلال

دلالة الواو في قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾ استئنافية[3]، والجملة بعدَها مستأنفةٌ لا محلّ لها من الإعراب، ويكون كلامُ الله قد تمّ عند قوله: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾، ويكون قولُه: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ وعدًا من قِبَل موسى وهارون ﷺ لمَن آمن وصدّق، بالسّلامة له من عقوبات الدّنيا والآخرة، ويجوز أن تكون الواو عاطفةً، ويكون قولُه: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ من قول الله تعالى لهما، كأنّه قال: (فَقولا إِنَّا رَسولا رَبِّكَ، وقولا له: والسَّلامُ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى)[4].

الإيـمـان بالحقّ سلامٌ من قسوة الدّنيا، وشقوةِ الآخرة

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 511.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 293.
(3) الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 16/ 265.
(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 11/ 333.

سِرّ التّعبير بالسّلام، دونَ التّحيّة:

عبّر بلفظ (السّلام) دون التّحيّة في قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾؛ لأنّه أعمّ وأشملُ من لفظ (التّحيّة)، فالتّحية نوعٌ من أنواع السّلام وجزءٌ منه، أو يكون المُرادُ بالسَّلام في الآية: السَّلامَةُ والإكْرامُ؛ لأنّه جاء مطلقًا من غير تقييد، وليس المُرادُ به هُنا التَّحيَّةَ؛ إذْ لَيْسَ ثَمَّ مُعَيَّنٌ يُقْصَدُ بالتَّحيَّةِ، ولا يُرادُ تَحيَّةُ فِرْعَوْنَ؛ لأَنَّها إنَّما تَكونُ في ابْتِداءِ المواجَهَةِ، لا في أَثْناءِ الكَلامِ، وهَذا كَقَوْلِ النَّبيِّ ﷺ في كِتابِه إلَى هرَقْلَ وغَيْرِه: "أَسْلِم تَسْلَم"[1].

السّلام أعمّ من التّحيّة، وجاء هنا مطلقًا دون تقييد

دلالة (أل) في قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾:

(أل) في قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾، هي الجنسيّة المُفيدة لاستغراق جنس السّلام في الدّنيا والآخرة[2]، وهناك مَن يرى أنّها العهديّة؛ حملًا للسّلام على معنى التّحيّة، أي: تحيّة الملائكة لأهل الجنّة[3]، وهو مرجوحٌ؛ فالقولُ بالعموم على أن تكون التّحيّة جزءًا منه أولى.

استغراق لفظ السّلام لكلّ جنس السّلام، بين سائر الأنام

سِرّ التّعبير بحرف الاستعلاء:

التّعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾، دالٌّ على التّمكّن من ﴿ٱلْهُدَىٰٓ﴾، فإنّ التّمكّن منه هو سببُ السّلامة في الدّنيا والآخرة؛ أي: سلامةٌ من اتّبع الهدى ثابتةٌ لهم دونَ ريب، وهذا يعني: أنّ مَن تمكّنت الهدايةُ منه، وطردَ عواملَ البُعد عنِ الهداية؛ من استعلاءٍ وتجبّرٍ، صارتِ السّلامةُ عنوانًا له.

الدّلالة على التّمكن من الهدى، وقايةٌ من كلّ سوء على المَدى

سِرّ التّعبير بـ ﴿مَنِ﴾ في السّياق:

أوثِر التّعبيرُ بـ﴿مَنِ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾؛ لدلالتها على العموم، والتّعبيرُ بالموصول هنا قُصِد به التّنبيه على ما تضمّنته الصّلة من كون اتّباع الهدى هو سبب السّلامة في الدّنيا والآخرة.

اتّباع الهدى سببُ السّلامة في الدّارين

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 258 و12/ 89 و16/ 230، والحديث رواه البخاري في صحيحه برقم: (7).

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 512.

(3) الطيّبيّ، فتوح الغيب: 10/ 180.

دلالة التّعبير بقوله: ﴿ٱتَّبَعَ﴾ دون (تَبِعَ):

الزّيادة في المبنى دالّةٌ على الزّيادة في المعنى

التّعبير بـ ﴿ٱتَّبَعَ﴾ أبلغُ منَ التّعبير بـ (تبع)؛ لما تقرّر مِن أنّ الزّيادة في المبنى دالّةٌ على الزّيادة في المعنى، والدّلالة هنا هي أنّ المطلوب ليس مطلقَ ما يُسمّى (هدى)؛ بل الهدى المُحقّق للسّلامة في الدَّارين، وهذا يكون بالتّحقُّق والتّمكّن منه، كما ساعد على هذا التّعدّي بـ ﴿عَلَىٰ﴾ دون اللّام.

سِرُّ التّعبير بالاتّباع دونَ غيره:

الحرص على الطّاعة والتّمكّن منها، هو مسلكُ النّجاة والأمان

أوثِرَ التّعبير بالاتّباع في قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾؛ لأنّ الاتّباع يعني الاقتفاء والسّير خلفَ الشّيء ومراعاته[1]، فلا يحيد عنه، وهو هنا كنايةٌ عنِ الطّاعة وعدم المَحيد عن سبيل الهدى، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠﴾ [يس: 20]، وفيه دلالةٌ على دعوة فرعون لاقتفائه أثر موسى وهارون، والمشي خلفَهما؛ لتحصلَ له السّلامةُ في الدّنيا والآخرة، ولكنّه أبى واستكبر، فكان منَ الغارقين الهالكين.

دلالة التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡهُدَىٰٓ﴾:

الهدى اسمٌ جامع للإيمان والعمل

عبّر بـ ﴿ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ لما فيه مِن معنى الشّمول لكلّ ما يُحقّق النّجاةَ؛ منَ الإيمان والعمل، فـ"الهدى: اسْمٌ يَقع على الإيمان والشّرائع كلّها؛ إذ الاهتداء إنّما يَقع بها كلّها"[2].

بلاغة التّعريض في آخر الآية الكريمة:

التّعريض بفرعون والكفّار، مبينٌ في سياقه عنِ المراد

في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ تعريضٌ بالكفّار، ومنهم فرعون، عُرِّض به لكي يطلبَ الهداية التّي جاء بها موسى وهارون ﷺ، والأمر وإن كان عامًّا، فهو داخلٌ فيه دخولًا أوّليًّا؛ سواءٌ حُمِلَ لفظُ ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾ على العهد، أو على الجنس؛ فعلى حمل السّلام بأنّه تحيّة الملائكة لأهل الجنّة، ففيه تعريضٌ بأهل النّار

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تبع).
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 954.

بأنّهم مهانون مِن خزنة النّار[1]، كما حكى القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١﴾ [الزّمر: 71]، وعلى أنّ المراد بالسّلام معناه العامّ، وهو الرَّاجح؛ فالتّعريض حاصلٌ للكفَّار أيضًا، بأنّهم ليسوا مِن أهله.

سِرُّ التّعبير بالماضي ﴿ٱتَّبَعَ﴾، دون مضارعه:

التّعبير بالماضي يدلّ على التّحقّق

عبَّر بالماضي في قوله: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ﴾؛ للدّلالة على أنّ المهتديَ الجديرَ بالسّلام، هو مَن تحقّق بالهُدى، وامتثل طريقَه بالفعل، وليس بالادّعاء ونحوِه.

سِرّ ختام تكليفات الله لموسى وهارون بالتّحيّة:

جملةُ السّلام بليغةُ الألفاظ، مثقلةٌ بالمعاني الدّلاليّة الشّيقة

خُتِمت تكليفاتُ الله لموسى ﷺ بهذه الجملة الجامعة: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾؛ لأنّها تحمل في طيَّاتها دعوةَ موسى وهارون ﷺ فرعونَ إلى الإيمان بالله، والانقيادِ لأوامره ونواهيه، بإطماعه بالسّلامة الدّنيويّة والأُخرويّة إذا اتّبع الهدى وآمن؛ فاللهُ يُسَلّمه من عذاب الدّنيا ومن عقاب الآخرة إذا صدّق وآمَن، وتحذّره إذا كذّب بالله وبرسالته التّي حملها إليه موسى وهارون، ومن بلاغة هذه الجملة: أنّها تُعَدّ قاعدةً في دين الله؛ بأنّ مِن اتّبع الهدى سَعِدَ، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: 123]، ومن لم يتّبع وأعرض عن منهج الله وهُداه، فله المعيشةُ الضّنك، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [طه: 124].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 358، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 67.

وممَّا يُذْكَر في ختام هذه التّكليفات إذا كان ختام الكلام وفصله بالسّلام؛ فيكون بمعنى التّحية؛ فكأنّما رغبَّاه في الانقياد إليهما، وفيه دلالةٌ على ما جرى عليه العرفُ من ذِكْر السّلام عند الفراغ منَ القول[1].

توجيه المتشابه اللّفظيّ بين (سورة طه) و(سورة الشّعراء):

أبـــرز وجـــوه الاخـــتـــلاف في المـــوضـــعـــين وتوجيهها

بين قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، وقوله في سورة الشّعراء: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧﴾ [الشّعراء: 16 - 17]، تشابهٌ لفظيٌّ، نبرزه فيما يأتي:

أوّلًا: في سورة طه قال تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ﴾، أما في سورة الشّعراء: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: 16]؛ والملاحظ أنّه في سورة طه لم يُصرّح باسم فرعون، واكتفى بالإضمار؛ وذلك لتَقدُّم ذِكْره في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾؛ فلا يوجد داعٍ لإعادة اسمه ظاهرًا لسبق ذكره، وعدمِ وجود فاصلٍ أجنبيٍّ عنِ القصّة يوجِبُ ذِكْر فرعونَ؛ أمَّا في سورة الشّعراء فقدِ اجتمع فيه أمران؛ **أحدهما:** الفصل بينَ مضمَرِ الاسم وظاهره ببضعٍ وعشرين كلمة؛ فالمسافةُ بينهما طويلة، **والثّاني:** أنّ أمر موسى عليه السلام إنّما ورد بإتيانه قوم فرعون في قوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١﴾ [الشعراء: 10 - 11]، فقد يُتَوهّم أنّ الجاري على هذا أن لو قيل عوضَ قولِه: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: 16] (فأتياه)، إلّا أنّه لم يقصد إلّا ذِكْر متبوعِهم؛ فلم يكن بدٌّ منَ الإفصاح باسمه غيرَ مُضمَرٍ[2].

ثانيًا: إفراد لفظِ الرّسول على إرادة المصدر، وتثنيّته على إرادة

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 10/ 35.
(2) ابن الزّبير الغرناطيّ، ملاك التّأويل، ص: 339.

الاسم: ففي سورة طه قال تعالى: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ بالتّثنية، وفي سورة الشّعراء: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء: 16] بالإفراد، وتفسير ذلك: أنّ لفظ (الرَّسول) مصدرٌ يُسمّى به، فحَيْثُ وُحِّد حُمِلَ على المصدر، وحَيْثُ ثُنّيَ حُمِلَ على الاسم، ويجوز أن يُقال: حَيْثُ وُحِّد حُمِلَ على الرّسالَة؛ لِأَنَّهُما أُرسلا لشَيْءٍ واحِد، وحَيْثُ ثُنّيَ حُمِلَ على الشّخصين[1].

ثالثًا: إفراد الضّمير المضاف إلى اسم (الرّبّ) في آية طه: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾؛ توبيخًا لفرعون وتحقيرًا، وتذكيرًا له بأن يراجع نفسه؛ لأنّه مربوبٌ لا ربّ، وفي آية الشّعراء أضيف إلى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء: 16]؛ ليدخل فيه موسى وهارون ﷺ، وفرعونُ وقومه، وكلّ العالمين، وبذلك يُفهَم لماذا اقتصر في آية طه على الإضافة إلى ضمير فرعون، ولم يَدخُلْ فيه الرّسولان الكريمان ﷺ، فإنّ آية الشّعراء، قد تكفَّلت بهذا الشّمول لهما ولغيرهما، وعلى هذا، فالّذي يحكم أسبابَ الاختلاف ومظاهرَه، هو السّياقُ في كِلا المَوضعين.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإرسال والبعث:

قال العسكريُّ في بيان الفرق بينَ الإرسال والبعث: "يجوز أَن يبْعَث الرّجلُ إِلَى الآخر لحاجَةٍ تخصُّه دونك ودون المَبْعوث إِلَيْه، كالصَّبيِّ تبعثُه إِلى المكتب فتَقول: بعثْتُه، ولا تَقول: أَرْسلتهُ؛ لِأَنّ الإِرْسال لا يكون إِلَّا برسالةٍ وما يجْري مجْراها"[2]، وبهذا يظهر أنّ لفظ الإرسال في الآية هو المناسب؛ لأنّ موسى وهارون ﷺ، قد ذهبا إلى فرعون رسولَين مُحَمَّلَين برسالة.

الإرسال يكون برسالةٍ ونحوها، والبعث قد يكون لحاجةٍ خاصّة

(1) الكرمانيّ، البرهان، ص: 176.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.

السّلام والتّحية:

لـفـظ الـسّـلام في الآيــة، أعـمّ وأشمل من لفظ التّحيّة

التّحيّة نوعٌ من أنواع السّلام وجزءٌ منه، ولفظ (السّلام) في الآية أعمُّ وأشمل من لفظ (التّحية)، والتّعبير بالسّلام في الآية مقصودٌ به - على الأرجح - ما تتحقّق به السّلامةُ في الدّنيا والآخرة، اللّهمّ إلَّا إذا قُصِد بالسّلام التّحيّة؛ فيكون لفظُ التّحيّة أعمّ منه؛ لأنّه يدخل فيه نحو: (حيَّاك الله، ولَك البُشْرَى، ولَقيت الخَيْر)[1]، ولا يقتصر على السّلام عليكم، والرَّاجح: أنّ السّلام هنا ليس قاصرًا على التّحيّة كما مضى، فإيثاره أوفقُ وأنسب وأشمل.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 59.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والثلاثون،
سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 32 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-74-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 32 : المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-74-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4565158 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»